الزهراء

ج ٣ : م ١ — ١٥ ربيع الاول ١٣٤٣

الميراث العربي

كان أبو خالد النميري في القرن الثالث للهجرة ، وكان يتحل الأعرابية ، ويتجافى في الفاظه ويتبادى في كلامه ، ويذهب المذاهب المنكرة في مضغ الكلام والتشدق به لينحقق أنه اعرابي وما هو به وإنما ولد ونشأ بالبصرة . قالوا فخرج الى البادية فاقام بها أياماً يسيرة ، ثم رجع الى البصرة فرأى الميازيب على سطوح الدور ، فأنكرها وقال : ماهذه الخراطيم التي لانعرفها في بلادنا ؟ . . .

فهذا طرف من العربية ، يقابله التاريخ في زمننا بطرف آخر من جماعة قد رزقوا اتساعاً في الكلام الى ما يفوت حد العقل أحياناً ، ووهبوا طبعاً زائغاً في انتحال المدنية الاوربية الي ما يتخطى العلل والمعاذير ، ورأوا أنفسهم أكبر من دهرهم ودهرهم أصغر من عقلهم ، فتعرف منهم أبا خالد الفرنسي وأبا خالد الانجليزي وغيرهما ممن اجازوا الى فرنسا وانجلترا فاقاموا بهما مدة ثم رجعوا الى بلادهم ومنبتهم ينكرون الميراث العربي بجملته في لغته وعلومه وآدابه ويقولون : ما هذا الدين القديم وما هذه اللغة القديمة وماهذه الاساليب القديمة ؟ ويشمرون جميعاً في هدم أبنية اللغة ونقض قواها وتفريقها . وهم على ذلك أعجز الناس عن أن

يضعوا جديداً أو يستحدثوا طريقاً أو يبتكروا بديعاً ، وانما ذلك زيغ الطبع وجنون الفكر وانقلاب النفس عكساً على نشأتها حتى صارت علوم الاعاجم فيهم كالدم النازل اليهم من آبائهم وأجدادهم وصار دخولهم فى لغة خروجا من لغة وايمانهم بشيء كفراً بشيء غيره ، كأنه لايستقيم الجمع بين لغتين وأدبين ، ولايستوي لاحدهم أن يكون شرقياً وفى لسانه لغة لندن أو باريس

ومنهم كتاب يكتبون بالعربية ويرتزقون منها وأدباء يبحثون فى آدابها وفنونها ، وكلهم مجيد محسن ، الا حيث يكتب كاتبهم فى اصلاح الكتابة ويبحث باحثهم في اصلاح الأدب ، فهنالك ترى أكبر همّ الاول أن تسلم له عاميته فلا ينكر عليه ضعف ولا لحن ، ولا يهجن له اسلوب ولا عبارة ، وأن يكون كل ما يعرض له من النقص معتبراً من الكمال العصري . . . وترى همّ الثاني ان يُكره الآداب العربية على أساليب غيرها ، ويقتسرها جراً وتلفيقاً وتلزيقا ويبسط فيها المعاريض الكلامية ؛ فهذا عنده كذب ولا دليل عليه ، وهذا محال ولا برهان فيه ، وهذا قائم على الشك ، وذاك على ما لا أدرى

حدثني كاتب شهير من هذه الفئة فكان من أعجب ماقال إن ابن المقفع فصيح بليغ وهو مع ذلك ليس بمسلم ولا عربى ولا شأن له بالحديث ولا بالقرآن ولا بالدين وساق ذلك رداً على ماقلته ، من أن لا فصاحة ولا لغة الا بالحرص على القرآن والحديث وكتب السلف وآدابهم . وما أدرى والله كيف يفهم هذا وأمثاله ، ولكنك تتبين فى عبارته مبلغ الغفلة التى تعترى هذه الفئة من نقص الاطلاع وضعف الفكر وبناء الأمر على بحث صحفي بلا تحقيق ولا تنقيب ، وترى كيف يذهبون عن الاصل الذى يقوم عليه الغرض ثم يحاولون ان يؤصلوا له على قدر عقولهم وأفهامهم . وقد تفلح الفلسفة فى كل شيء الا فى تعليل ما علته

معروفة. وهل نشأ ابن المقفع الا على اللغة العربية والادب العربي والرواية العربية ، وكان من اقوى أسباب فصاحته المشهورة أخذه هذه الفصاحة وهذا الأسلوب عن نوربن يزيد الاعرابي الذي قالوا فيه انه كان من أفصح الناس لساناً . ولكن اين من ينقب عن هذا ونحوه في تلك الجماعة أو يتوهمه منهم ،وهل علموا ان ابن المقفع على انصرافه الى النقل من الفارسية واليونانية اختار يوما اسلوب العامة في زمنه او استجاده للنقل والترجمة، او خرج على الادب الذى تأدب به ، او حاول فيه محاولة ، أو قال بوجوب هدم القديم لانه لايرى للعرب مثل الذى يعرف للفرس واليونان من العلم والحكمة والخيال

قال لى ذلك الكاتب فى بعض كلامه : ان الميراث العربى القديم الذى ورثناه يجب هدمه كله وتسويته بالعدم . قلت : افتوجد انت للناس لغة وأدباً وتاريخا ثم طبائع متوارثة تقوم على حفظ اللغة والأدب والتاريخ . أم تحسب أنك تستطيع بمقالة عرجاء فى صحيفة مقعدة . . . أن تهدم شيئاً أنت بين اوله واخره كعود من القش يؤتى به لاقتلاع جبل من أصوله

من أين جاء الميراث العربى وكيف اجتمع وتكامل الا من القرائح التى جدّت فى إبداعه وانمائه ، وأضافت أعمارها صفحات فيه ،واستخلصت له آداب الفرس والهند واليونان وغيرهم فربت كل ذلك ليندمج فى اللغة لالتندمج اللغة فيه ، وليكون من بعضها لالتكون من بعضه، وليبقى بها لالتذهب به.ومن ذا الذي يزعم ان العرب هم كل الارض وان آدابهم خلقت على الكفاية لاتحتاج الى تحوير او تبديل ، ولكن من ذا الذى يرضى ان يجعل لكل أرض عربية لغة عربية قائمة بنفسها ، ولكل مصر أدباً على حياله ، ولكل طائفة من الكتاب كتابة وحدها ؟ ومن الذى فعل ذلك أو حاوله فى التاريخ الاسلامي كله ؟

لقد كانت القبائل العربية مادة هذه اللغة وسبب اتساعها واستفاضتها، وكان

فحول الشعراء من الجاهلية كأن كل واحد منهم قبيلة في التفنن والابداع مجازاً واستعارة وبديعاً ، ثم جاء القرآن الكريم فكان الغاية كلها ، ثم تتابع الشعراء والكتاب والادباء فمن لم يزد منهم على الموجود لم ينقص منه ، ثم جاء ادباء المترجمين وفيهم من جمع البراعة من أطرافها فكانوا هم القبائل الحديثة في معاني اللغة وفنونها ، وكان مذهبهم في كل ماترجموه وما اقتبسوه هذه الكلمة التي قالها العتابي « اللغة لنا والمعاني لهم » يريد العجم ، قد كان ينسخ كتبهم ويسافر في طلب الكتاب شهراً . والعتابي من ابلغ من أخرجتهم العربية ، كان واحد دهره في الاجوبة المسكتة

فلو صنعت القبائل الحديثة من أبي خالد الفرنسي الى أبي خالد الانجليزي هذا الصنيع لكان رأس أمرهم الحرص على اللغة ، فان شدوا عليها فسيحرصون على كتبها التي هي مادتها ، فان جمعوا هذه فسيدرسونها ويتناقلونها ، فاذا هم تدارسوها رسخت فيهم الملكة واستحكم لهم الذوق وانقادمعهم الطبع واستفصحوا واستجادوا ، فاذا انتهينا الى هذا لم يبق موضع يخالفون عليه وصار أدباء اللغة جميعا جنسا واحداً ولم يبق الا النقد يبين شخصا من شخص وطريقة من طريقة ، واللغة بعدُ محفوظة سليمة ، واليها المرجع كله ولها العمل كله وهي الامر كله ؛ وهذا ما تقوم عليه آداب الامم المستقلة المنفردة بجنسيتها ومقوماتها . الا يرى أبو خالد الانجليزي وأبو خالد الفرنسي كيف تباهي كل أمة في أوربا بلغتها وكيف يفخر الفرنسيون بلسانهم حتى انهم ليجعلونه أول مايعقدون عليه الخنصر اذا عدوا مفاخرهم ومكارمهم . وهل اعجب من أن المجمع العلمي الفرنسي يؤذن في قومه بابطال كلمة انجليزية كانت في الالسنة من أثر الحرب الكبرى ويوجب اسقاطها من اللغة جملة ، وهي كلمة (نظام الحصر البحري) ، وكانت مما جاءت

مع نكبات فرنسا في الحرب، فلما ذهبت تلك النكبات رأى المجمع العلمي أن الكلمة وحدها نكبة على اللغة كأنها جندي دولة اجنبية في أرض دولة مستقلة بشارته وسلاحه. وهل فعلوا ذلك الا ان التهاون يدعو بعضه الى بعض، وأن الغفلة تبعث على ضعف الحفظ والتصون، وأن الاختلاط والاضطراب يجيء من الغفلة، والفساد يجتمع من الاختلاط والاضطراب؟

إنما الامور بمقاديرها في ميزان الاصطلاح، لا بأوزانها في نفسها؛ فالف جندي أجنبي بسلاحهم وذخيرتهم في أرض هالكة بأهلها ربما كانوا غوثا تفتحت عنه السماء، ولكن جند يا واحداً من هؤلاء في أمة قوية مستقلة تنشق له الارض!

مصطفى صادق الرافعي

﴿ الأئمة في السفارات العثمانية ﴾

قال عبد الحق حامد بك ـ شاعر الترك الاكبر ـ في مذكراته التي ينشرها الآن في جريدة (وقت) التركية:

ان الدولة العثمانية لم يكن لها في سفاراتها لدى الحكومات الاجنبية أئمة يرجع اليهم في الامور الشرعية. فلما انتحر سعد الله باشا سفير الدولة العثمانية في مدينة فينة عاصمة النمسا، وبلغ مسامع السلطان عبد الحميد انه لم يكن هناك من يقوم بالامور الدينية عند وفاة السفير صدرت إرادته بأن يكون في كل سفارة إمام خاص بها. وفكر ولاة الامور يومئذ ان الامام اذا لبث في عاصمة أوربية مدة طويلة ربما يؤثر ذلك على سيرته فتقرر أن تكون مدة وظيفة كل إمام في كل سفارة سنة واحدة، ثم يخلفه فيها آخر غيره، فيكون ذلك وسيلة لكثرة عدد علماء الشريعة الاسلامية الذين يشاهدون بأنفسهم حالة العالم المتمدن مدة سنة كاملة. ولكن ولاة الامور لم يتقيدوا فيما بعد بهذا القيد وصار الأئمة يلبثون في السفارات زمناً طويلا